بسم الله الرحمن الرحيم

سِيَرُ أَئِمَّةِ الدَّعْوَةِ

محاضرةٌ مفرَّغة لفضيلة الشيخ:

عبد السَّلام بن برجس آل عبد الكريم

-رحمه الله تعالى، وطَيَّبَ ثراه-

أعَدَّ هذِهِ المادَّةَ: محمَّد عِماد نوفَل

www.daawah.net

أما بعد -أيها الأحبة في الله!-:

نَحمد الله -جَلَّ وَعَلاَ- على ما وَفَّقَ وبارك وهدى وأرشد إلى الاجتماع بِهذه الوجوه الطيبة الْمُباركة، التي تَعْلُوهَا مَحَبَّةُ السنة، وتنطلق منها دوافع الخير -نَحسبها كذلك، ولا نُزَكِّي على الله أحداً-، فنحمد الله ﷻ على أن جَمعنا بِهم، ونسأله أن يَجمعنا وإياكم في جنات عدن في مقعد صدق عند مليك مُقْتَدِر.

ثُمَّ إن الأخ الشيخ -وفقه الله- تكلم بِما سَمعتم، أسأل الله -جَلَّ وَعَلاَ- أن يفيده وأن يوفقه، والذي أُحِبُّ أن أُقَيِّدَ كلامه به: أنه -وفقه الله- ذكر أن الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب هو الذي أرسل السرايا، وهذا -كما هو معلوم- ليس صحيحاً؛ وَإِنَّما الذي أرسل السرايا هو الإمام مُحَمد بن سعود -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-؛ فهو ولي الأمر، والشيخ إنَّما هو عالِم مُفْتٍ مُعَلِّمٌ مُرْشِدٌ دَاعٍ إلى الله ﷻ، فَفَرْقٌ بين منصب العلم ومنصب الولاية، ولعل هذا من سَبْقِ اللسان، أسألُ الله -جَلَّ وَعَلاَ- التوفيق والْهَداية للجميع.

ثُمَّ أيها الإخوة! إن الْحَديث عن سِيَرِ العلماء والكلام عن أحوالِهم وأخبارهم من أحسن الحديث وأحسن القَصَص؛ إذ به يتقوى طالب العلم على طلب العلم، ويزداد بصيرة وحكمة، ويستفيد عِظَةً وعبرة؛ إذ أحوالُهم -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَرَضِيَ عَنْهُمْ- مليئة بكل خير وبِر وتضحيات وصدق وجهاد وبلاء، ولذا؛ فإن بعض أهل العلم -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- نَصَّ على أنه يُسْتَحَبُّ لطالب العلم أن يَجعل شيئاً من وقته للنظر في أحوال أهل العلم السابقين، وقراءة ما فعلوه وما قاموا به وما بذلوه في سبيل العلم وتَحصيله، وفي سبيل الدعوة إلى الله ﷻ.

ومن هنا؛ جاء حديثنا في هذه الليلة عن أئمة الدعوة -رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-، ونَحن عندما نتكلم عن أئمة الدعوة لا نتكلم عنهم لأَنَّهُم من أهل نَجْدٍ؛ وَإِنَّما نتحدث عنهم لأَنَّهُم حَمَلَةُ العقيدة، ودعاة صدق، وأنوارٌ تتلألأ في جبين التاريخ تَحمل رسالة الله التي أرسل الله بها رسوله ﷺ، فهذا هو مُوجِبُ مَحَبَّتِهِمْ وموجب ولائهم؛ إذ أن البلاد -كما تعلمون- لا ترفع أحداً ولا تَضَعُهُ؛ فَإِنَّما يرفعه ويضعه أعمالُه الصالحة.

فسننطلق -إن شاء الله- في الكلام على هذه الطائفة من أهل العلم الذين طَوَّقُوا كل فرد مِنَّا بِمِنَّةٍ عظيمة؛ ألا وهي: سلامة العقيدة والتوحيد التي بِها دخول الْجَنة والنجاة من النار، هؤلاء الأئمة -أئمة الدعوة رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ- ما قِصَّتُهُم؟ وما خبرهم؟ وكيف خروجهم ونشأتُهم؟

لقد كانت هذه البلاد -كما تعلمون- مَرْتَعاً وخيماً للجهل والظلم والفقر وَكُلِّ أمر مَشين، رايةُ البدعة مرفوعة، وجيوش الشرك منصورة، الأوثان والأصنام تُعْبَدُ من دون الله -جَلَّ وَعَلاَ-، يُذْبَحُ وَيُنْذَرُ لغير الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، هذا من ناحية الدين.

أما من ناحية الأمن والاستقرار؛ الكلُّ منا -لاسيما كبار السِّنِّ- يعلمون الأوضاع الْمُتَرَدِّيَةَ والأحوال السيئة؛ إذ لا أمن ولا استقرار ولا طمأنينة في هذه البلاد.

أما من ناحية الْمَعيشة؛ فهي ضعيفة جداً، رحل أكثر أبناء هذه البلاد عن هذه البلاد؛ طلباً لِلُقمة العيش، وطلباً لِجَمْعِ شيء قليل من حَطام الدنيا يستعينون به على أمور دنياهم.

هذه هي أحوال هذه البلاد، فَلَمَّا أن الله ﷻ أراد بها خيراً؛ بعث منها عالماً فَذّاً صادقاً مُخْلصاً -نَحسبه كذلك والله حَسيبه، ولا نزكي على الله أحداً-؛ مصداقاً لقول نبيه -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ-: «**يَبْعَثُ اللهُ عَلَى كُلِّ مائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينَهَا**».

بعث الله -جَلَّ وَعَلاَ- من هذه البلاد الْمُتَرَدِّيَةِ دينياً وسياسياً واقتصادياً وأمنياً مُحَمَّدَ بن عبد الوهاب؛ ليرفع قامتها في جبين التاريخ، وليعليَ مقامها في الدنيا؛ إذ قبل ذلك لَمْ تَكُنْ تُذْكَرُ في أي حال من الأحوال إلا في نُتَفٍ يسيرة ضليلة جداً، في عهد النبي ﷺ عندما غزاها أصحابه، ثُمَّ بعد ذلك انقعطت أخبارها؛ لأنَّها ليست مَحَطَّاً للاقتصاد، ولا مَحَطاً للعِلم، ولا مَحَطاً لأي أمر من الأمور التي تُشَرِّفُ الإنسان وترفعه.

فجاء مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مَولوداً سنة خَمْسة عشر ومائة وألف للهجرة (١١١٥هـ)، نشأ في بيت علم ودين وفقه؛ فَجَدُّهُ الشيخ سليمان بن مشرف من أكبر علماء نَجد، وأبوه الشيخ عبد الوهاب من قضاة الْعُيَيْنَةِ وَحُرَيْمِلاء وما حولَها من البلدان، وَعَمُّهُ الشيخ إبراهيم من أهل العلم المعروفين، أيضاً تولى القضاء، ويتنقل بين الْمُدن والقرى للتذكير والتعليم.

وُلِدَ هذا العَلَم في هذه الأسرة الطيبة، فأثرت عليها الصلاح والاستقامة، ورغبته في العلم.

ثُمَّ كان عُمْرُه اثني عشر عاماً حَجَّ بيت الله الْحَرام، وأخذ عن بعض أهل العلم الْمَوجودين في ذلك الْمَكان الشريف، ثُمَّ رجع إلى نَجد، فتعلم العلم وَدَرَسَهُ، وقرأ على أبيه وعمه وعلى من وُجِدَ مِنَ العلماء في العيينة.

ثُمَّ إنه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رأى أن طالب العلم والداعيَ إلى الله -جَلَّ وَعَلاَ- لا يُمكن أن يسير في هذا الطريق إلا إذا تَعَلَّمَ العلم، ورَسَخَتْ قَدَمُهُ فيه، وآتاه الله -جَلَّ وَعَلاَ- الْحِكمة وَفَصْلَ الْخِطاب -آتاه الْحِكمة: السنة، وفصل الْخِطاب: قوة الْمُحَاجَّة والتوضيح للحق والتبيين له لدى الناس والعامة-؛ فرحل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رحلات طويلات -قد لا نكون بِحاجة إلى ذكرها والاستفاضة فيها-، بلغت

رحلته سبعة عشر عاماً، بين مكة والْمَدينة والبصرة والأحساء، ثُمَّ البصرة، ثُمَّ رجع إلى الْمَدينة، ثُمَّ رجع إلى نَجد سنة خَمْسين ومائة وألف من الهجرة (١١٥٠هـ).

ثُمَّ دعا إلى الله ﷻ، وأرشد وَذَكَّر، وطلب النُّصْرَة؛ لأن الدِّينَ بدون قوة سيف لا يُمْكِنُ أن يقوم وأن يستمر وأن ينتشر، ولذا؛ شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- لَمَّا لَمْ يَكُن معه شيخ يدعو إلى الله ويرشد من عاند وحاد وانْحرف وجحد وكابر واستعصى على طاعة الله والدخول في دينه لَمْ يؤثر تأثيراً كبيراً كما أثره الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب، فطلب النصرة من ابن مُعَمَّر -كما تعلمون-، فَنَصَرَهُ أول الأمر ثُمَّ تَخَلَّى عنه، ثُمَّ بعد ذلك توجه إلى الدِّرْعِيَّة فاجتمع مع أميرها الإمام مُحَمد بن سعود -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-، وتعاهدوا على نشر هذا الدين وبثه في كافة القرى والأمصار، فحصل ذلك، وبدأت الدعوة، فلم يقاتلوا أحداً ابتداءً وَإِنَّما قاتلوا من قاتلهم، ثُمَّ قضى الله أمره فقاتلوا مَنْ تَبَيَّنَ منه الكفر؛ كَسَبِّ دين الله، وسب النبي ﷺ، ونَحو ذلك من الْمُكَفِّرات.

وهكذا بدأت الدعوة تنتطلق شيئاً فشيئاً، ابتداءً من القرى الْمُجَاوِرَة للدرعية، حتى وصلت الآفاق وَعَمَّتْ كافة القرى والأمصار -بحمد الله ﷻ-، وتَجاوب معها أهلُ العلم والبصيرة في كل مكان وفي كل زمان، في الْهِند، وفي السِّنْد، وفي الشام، وفي مِصر، وفي غيرها من البلدان -بحمد الله ﷻ-.

ومنذ ذلك الوقت وإلى هذه اللحظة -أي: ما يزيد على مائتين وخمسين عاماً- والناس في هذه البلاد ينعمون بنعمة عظيمة؛ وهي: نعمة التوحيد والسلامة من الإشراك بالله ﷻ، فيا لَها من نعمة عظيمة لو أنفق الإنسان جَميع مالِه شكراً لَها لَمَا أداها؛ لأن بِها نَجاته من النار وبِها دخوله الْجَنة؛ فمن مات لَمْ يشرك بالله شيئاً دخل الْجَنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار.

وهذه الدعوة -دعوة الشيخ الإمام مُحَمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إِنَّما كتب الله -جَلَّ وَعَلاَ- لَها الْقَبول والانتشار وطرح الله فيها البركة -حتى أننا بعد مائتين وخمسين سنة -أو أكثر- نَنْعَمُ ونتفيأ ظلالَها ونتسور بسورها بِحمد الله جَلَّ وَعَلاَ- إِنَّما جُعِلَ ذلك لَها لأمور عديدة:

منها: أن هذه الدعوة جَعَلَت اهتمامَها على تصحيح عقائد الناس والدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وهذه هي دعوة الرسل -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-؛ فإنَّهم إِنَّما جاؤوا بتحقيق توحيد الله -جَلَّ وَعَلاَ-، وَتَخليص العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فلما كانت هذه الدعوة مُشَابِهَةً لدعوات الأنبياء -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ- طرح الله -جَلَّ وَعَلاَ- لَها القبول، وطرح الله ﷻ فيها البركة.

والدعوة إلى التوحيد أمرها عظيم وَخَطْبُهَا جليل؛ إذ أن الله ﷻ إنَّما خلقنا وأوجدنا لِنَعْبُدَهُ وَلِنُوَحِّدَهُ وَلِنُفْرِدَهُ بِكُلِّ أنواع العبادة التي يُحِبُّهَا الله -جَلَّ وَعَلاَ- ويرضاها من الأقوال والأعمال والأفعال.

ولا تَظُنَّنَّ -يا عبدَ الله!- أنك لست بحاجة إلى الدعوة إلى التوحيد، ولو كنت في مثل هذه البلاد؛ فَإِنَّ إبراهيم خليل الله -إبراهيم الذي وَفَّى، إبراهيم الذي هو أمة لِوَحْدِه- يدعو ربَّهُ -جَلَّ وَعَلاَ- ويتضرع إليه فيقول: ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾[إبراهيم: ٣٥]، فإذا كان هذا هو خليل الله فما ظَنُّكَ بِمَن دونه من البشر؟!!! لا شك أنَّهم بِحاجة إلى أن يدعو الله ﷻ دوماً وأبداً أن يعصمهم من الوقوع في الإشراك، وأن يرزقهم تَحقيق توحيد الله ﷻ، وهذا الأمر إِنَّما يَحصل بالعلم والتعلم والتذاكر والْمُذاكرة في مسائل التوحيد وأبوابه، فَكُلُّ إنسان مُحتاج إلى هذا الباب -سواء كان عامياً، أو عالِماً، أو طالب علم -سواء كان ذكراً أو أنثى-.

أتعلمون أن رجلاً دخل الْجَنة في ذبابة ورجلاً دخل النار في ذبابة؟! كيف؟!!

رجل مَرَّ على قوم لَهُم صنم، فقالوا له: قَرِّبْ. قال: ما كنت لأقرب لأحد غير الله ﷻ. فضربوا عنقه، فدخل الجنة. ورجل مَرَّ عليهم، فقالوا له: قَرِّبْ لِهذا الصنم. فقال: لا أجد ما أقرب. فقالوا: قَرِّبْ ولو ذبابة. فأخذ ذباباً فذبَحه، فقتلوه، فدخل النار -عافانا الله وإياكم-. أخرجه الإمام أحمد في الزُّهد عن سلمان الفارسي بإسناد جيد. فهذا وجه من وجوه انتشار دعوة هذا الإمام، وطرح البركة فيها، واستمراريتها هذا الوقت الطويل.

وجه آخر: أن هذه الدعوة رَكَّزَتْ على العلم، وأقامت دعائمها عليه؛ فهي لَمْ تَقُمْ على الْجَهل، وَلَمْ تَقُمْ على شيء سوى العلم الْمُنْبَعِث من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ، ولذا؛ كان اهتمام الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مُنْصَبَّاً على تعليم العلم، فهو -رَحِمَهُ اللهُ- يذكر أن العلم على قسمين:

- فرض عَيْنٍ يَجِبُ على كل أحد أن يتعلمه، ولا يَسَعُ أحد من الْمُسلمين أن يَجهله.
- وفرض كِفايَةٍ إذا قام به من يكفي سقط الإثْم عن الباقين.

الأول هو ما عناه الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في قوله في «الأصول الثلاثة»: «اعلم -رَحِمَكَ اللهُ- أنه يَجب علينا تَعَلُّمُ أربع مسائل:

الأولى العلم؛ وهو: معرفة الله، ومعرفة رسوله، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

والثانية: العمل.

والثالثة: الدعوة إلى الله.

والرابعة: الصبر على الأذى فيه».

فهذا العلم الذي نَصَّ عليه الشيخ هو فرض على كل أحد أن يتعلمه، وهو الذي قيل للإمام أَحْمَدَ عنه: أيَجِبُ على الْمُسلم طلب العلم؟ قال: «نعم؛ يَجب أن يطلب من العلم ما لا يَسَعُهُ جَهْلُهُ». قيل: مثل أي شيء -يا أبا عبد الله!-؟ قال: «صلاته، وصومه، وزكاته، ونَحو ذلك».

أما فرض الكفاية؛ فهو التوسع في العلم والْخَوض في دقيقه وجليله من الْمَسائل، كما هو شأن أهل العلم -وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَبَارَكَ فِيهِمْ-.

فهذا يفيدنا أن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- اهتم بالعلم، واعتنى به عنايةً فارقة، وجعله أساس دعوته؛ لأن كل دعوة لا تقوم على العلم فهي إلى زوال، تُمْحَقُ بَرَكَتُهَا، ويفشل القائمون عليها، ولا يطرح الله -جَلَّ وَعَلاَ- لَها التوفيق والقبول.

ولذا؛ فإنكم تسمعون كثيراً عن آبائكم أنَّهم كانوا يَحفظون «الأصول الثلاثة»، و«التوحيد» للشيخ مُحَمد، و«كشْف الشبهات»، و«القواعد الأربع»، وغيرها من الرِّسائل التي كتبها الشيخ مُحَمد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-. وقد جلست مع كبير سِنٍّ توفي -رَحِمَهُ اللهُ- عمره فوق مائة عام، فطلبت منه أن يُخبرني بما يَحْفَظُهُ من الْمُختصرات، فقال: سَلْ ما بدا لك من مُختصرات الشيخ؟ فسألته عن «الأصول الثلاثة»، فأتى بها من أَلِفِهَا إلى يَائِهَا أحسن من حفظ كثير من طلبة العلم، ثُمَّ طلبنا منه أن يقرأ في «كشف الشبهات»، فقرأ فيه ثلاث ورقات قراءةً قوية لَمْ يتزحزح حرفاً واحداً، وهذا بشهادة جَماعة من الإخوة.

وكانت هذه الصورة ليست في هذا الرجل لوحده، بل كانت سائدة عند أهل نَجد في كافة قراهم وأمصارهم؛ لأن الإمام سعود بن عبد العزيز -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أمر أمراً على جميع [كلمة غير مفهومة] في جميع قرى نَجد أن يعلموا من لديهم من العامة دين التوحيد، ولذا؛ كان العامة قبل هذا الوقت على درجة رفيعة من العلم والْمَعرفة من ثَمرات دعوة الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ-، وهذا هو الذي حذا بالشيخ مُحَمد أن يقول في «كشف الشبهات»: «إنَّ العاميَّ من الْمُوحدين يَغْلِبُ الألفَ من علماء الْمُشركين».

إذن؛ الاهتمامُ بالعلم والتركيزُ عليه هو دَيْدَنُ الدعاة الصادقين الناصحين، يَبْنُونَ أمورهم على العلم الشرعي، مراقبين الله ﷻ، مُتَّقِينَهُ في ذلك، مُقَدِّمِينَ رِضَاهُ على رِضى جَميع البشر، ولذلك؛ يُكْتَبُ لَهُم التوفيق والنجاح.

ومن ذلك -أيضاً-: أن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حارب التَّعَصُّبَ، وَذَمَّه، ونَهى عنه، وَسَبَّ أهله وعابَهُم، وذكر أن فيهم أخبثَ من خصال الْجَاهلية؛ لأن الْجَاهليين إنَّما ردوا الْحَق واستكبروا عنه لأنَّهم قالوا: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾[الزخرف: ٢٣]، فهم إذا أراد النبي

ﷺ أن يُبَيِّنَ لَهُم شيئاً من الْحَق نفروا، وحاصوا حيصة حُمُرِ الوحش، لا يريدون أن يسمعوا، ولا يريدون أن يتبصروا، ولا يريدون أن يهتدوا[1]، فهؤلاء هم الذين يَختم الله -جَلَّ وَعَلاَ- على قلوبهم؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن مَنْ تَحَرَّى العلم أعطاه الله -جَلَّ وَعَلاَ- العلم، ومن تحرى الْحِلم أعطاه الله -جَلَّ وَعَلاَ- الْحِلم، فالتعصب الذي حاربه الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- هو التعصب الْمَذموم الْمَمقوت الذي يزرع في قلب صاحبه عُقْدَةً كبيرة؛ وهي: عدم السماع مِمَّن دعاه وأرشده ونصحه.

الْمسلم الذي يريد الْحَق ويقصده وَيُقَدِّمُهُ على هوى نفسه هو الذي يسلم، فإن كان ما قيل حقاً قَبِلَهُ وآمن به، وإن كان باطلاً مُخالفاً لنص من كتاب الله أو مُخالفاً لنص من سنة رسول الله ﷺ رَدَّهُ وأباه، لكن من تعصب لآبائه أو أجداده أو علمائه أو مشايخه وقال: ما كانوا عليه فهو حق، وما لَمْ يكونوا عليه فهو باطل، فهذا ليس بصحيح على الإطلاق؛ فإن أهل العلم يكون في أقوالهم الصحيح ويكون في أقوالهم الضعيف، فنحن لَمْ يتعبدنا الله ﷻ إلا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، فإذا جَرَّدَ الْمُسلم الْمُتابعة للكتاب والسنة وُفِّقَ ديناً ودنيا.

ولذا؛ رَكَّزَ الله -جَلَّ وَعَلاَ- على هذا الأمر، فاهتم به، وغرسه في نفوس الصحابة -رَضِيَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُمْ-، حتى أن عُمَرَ لَمَّا قال: إنك -يا رسول الله!- لست أحب إليَّ من نفسي، أنت أحب إلي من أهلي ومالي وولدي لكن من نفسي لا، قال: «**لاَ -يَا عُمَرُ!-؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**»، فسرعان ما تراجع، وترك ما تعلقت نفسُهُ به، وأذعن لرسول الله ﷺ واستجاب، ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[النور: ٥١-٥٢].

وهذا الأصل العظيم لا يُفْهَمُ منه القدح بأهل العلم أو التنقص منهم؛ بل التَّحَرُّرُ من التعصب شيء، والاستفادة من أهل العلم ومن كتبهم والرجوع إليهم شيء آخر، وَلَمَّا خلط بعض الناس بين هذين الأمرين أَتَوْا بالعجب الْعُجَاب، وَضَلُّوا وَأَضَلُّوا كثيراً، فالتعصب الْمَمقوت الْمَذموم: أن يُقَدِّمَ الرجل هواه على قول الله وقول رسوله، أو يقدم قول أحد من علمائه ومشائخه أو آبائه وأجداده على نصوص الكتاب والسنة، فهذا هو الْمَحذور الْمَشين الْمَمْقُوت، أما قراءة كتب أهل العلم والاستفادة منها والانتفاع منها -كمذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب الإمام أَحْمد رَحِمَهُ اللهُ- فهو حق، ودين يُدانُ الله ﷻ به، وَلَمْ تزل الأمة على هذا الأمر، يستفيدون من هذه الكتب،

---

(١) الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- قال: «يسمعون... يتبصرون... يهتدون».

وينتفعون منها، وَيَجعلون الاستفادة والانتفاع منها شيئاً، والتعصب لَها شيئاً آخر، فوجب التفريق بين هذين الأمرين.

أيضاً من الأمور التي ساعدت دعوة الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ- على البقاء والثبات، وطرحت فيها البركة: وجود علماء وتلاميذ صادقون ناصحون في حَمْل هذه الرسالة، يُبَلِّغُونَها كما فهموها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على ضَوء الكتاب والسنة، ولذا؛ فإن الكل يعلم أن هذه الدعوة لَمْ تسلم من أعداء داخليين ولا أعداء خارجيين، فالأعداء الخارجيون تكالبوا عليها وأجلبوا عليهم بِخيلهم ورجلهم، فعادوها من ناحية ما تُقَرِّرُهُ من مسائل العلم في الاعتقاد وغيره، وحاربوها -أيضاً- في السيف والسهام والرجال والْمَكر والْخَديعة ونَحو ذلك.

ومن الداخل -أيضاً- وُجِدَ مَنْ يفتات على علماء هذه الدعوة بآراءَ جديدة وَبِنحَلٍ غريبة على جسم هذه البلاد، وَيُشيعونَها وينشرونَها، فكان أولئك التلاميذ الأبرار والعلماء الأفذاذ الذين تأثروا بالشيخ مُحَمد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وبدعوته الصادقة الْمُمتدة من دعوة الرسل -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلاَمَهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ- كانوا لِهذه الأمور بالْمِرصاد، فكانوا يُحاربون الأعداء الداخليين ويُحاربون الأعداء الْخَارجيين، وَبِهذا حَمُوا حَوْزَةَ هذه الدعوة، وحفظوها من كل دخيل عليها، ومن كل عدو ماكر بِها، فكتبُهم ورسائلهم التي تقارع أهل الباطل في الْهِند وفي مصر وفي الشام وفي الشرق وفي الغرب لا تحصى.

لَمَّا قام رجل واحد؛ وهو الْمَدعو: داود بن جرجيس، بالكلام الباطل في مسألة دعاء الأموات والصالِحين، وَقَرَّرَ -عَافَانَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ- أن دعاء الأموات من دون الله -جَلَّ وَعَلاَ- مستحب جائز، هل سكت هؤلاء العلماء؟!! وهل تركوه؟!!!

لا؛ بل رَدُّوا عليه، بكم رَدٍّ رَدُّوا عليه؟! بِرَدٍّ واحد أو باثنين أو بثلاثة؟!! لا؛ رَدُّوا عليه بِسَيْلٍ وابِلٍ من الرُّدُود؛ فالشيخ عبد الرَّحْمن بن حسن بن مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رَدَّ عليه، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرَّحْمن بن حسن بن مُحَمد بن عبد الوهاب رَدَّ عليه بكتابين، والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- رَدَّ عليه بكتابين، والشيخ أَحْمد بن إبراهيم بن عيسى رَدَّ عليه -أيضاً- بكتاب، والشيخ الألوسي في العراق -أيضاً- رَدَّ عليه بكتاب، وهكذا رَدَّ عليه ثُلَّةٌ من أهل العلم الصادقين الناصحين حتى أخطؤوه وأسكتوه.

وَلَمَّا قام دحلان يدعو إلى البدع والضلال وَيَسُبُّ هذه الدعوة وَيُشَنِّعُ عليها -ماذا فعلوا به؟- رَدُّوا عليه الردود الْحَاسِمَةَ القوية التي استئصلت شأفته، وقطعت دابر دعوته، وأبطلت جَميع شُبَهِهِ التي يُلَبِّسُهَا على الناس، فهذا طائفة من الْجِهاد بالقلم ضد أعداء الدولة وأعداء الدعوة خارج هذه البلاد.

أما من داخل هذه البلاد؛ فإن الناس -كما تعلمون- قد يُولَعُونَ ببعض الأفكار الغريبة، وقد وُجِدَ من أبناء هذا البلد من أولع بمثل هذه الأفكار؛ ففي زمن الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرَّحْمن بن حسن بن مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- خرج طائفة يُكَفِّرُونَ الناس، وَيُغَالُونَ في باب التكفير، يعتمدون -على ماذا؟!- على نصوص من كلام الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وهذه مصيبة كبيرة -كونه يَخرج ناس من هذا البلد يَحْتَجُّونَ بكلام الشيخ مُحَمد على ما لا يريده الشيخ ولا يُقَرِّرُهُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ-، فانتصب الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرَّحْمن بن حسن لِهؤلاء، وَكَشَفَ شبهتهم، وَرَدَّ عليهم، ووضح لَهُم وجه الصواب، فتراجع منهم من تراجع، وبقي منهم من بقي، وذلك في كتابه الذي سبق وأن طبعتُهُ؛ وهو: «أصول وضوابط في التكفير»؛ فليرجع إليه من شاء.

أيضاً في حِقْبَةٍ أخرى؛ لَمَّا خرجت طائفة أخرى، ونبتت مثل هذه الْمَسائل، فتكلموا عن مسائل التكفير، وعن مسائل التبديع، وعن مسائل التفسيق، وعن مسائل الْهَجر، بغير برهان ودليل، يأخذون من كلام الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ- شيئاً يظنونه لَهُم وهو عليهم، ماذا فعل أهل العلم؟

تصدى لَهُم الشيخ العالِم الشيخ سليمان بن سَحْمان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فَفَنَّدَ شبههم، وكشف مغالطاتهم، وَبَيَّنَ لَهُم سبيل الْحَق والرشاد، وذلك في كتابين عظيمين جليلين ينبغي لنا أن نقرأهُمَا؛ وَهُمَا: «إرشاد الطالب إلى أهم الْمَطالب»، و«إرشاد أهل الْحَق والاتباع في مُخَالفة أهل الْجَهل والابتداع»؛ فقد جاء بِهذه الشُّبَه التي روجتها هذه الطائفة، وبينها بياناً واضحاً شافياً كافياً لا مُدْخَلَ عليه ولا مَطْعَنَ فيه، قَصْدُهُ في ذلك النُّصْحُ والبيان والتذكير.

أما بالنسبة للأعداء الْخَارجيين الذين حاربوا هذه الدعوة بالسيف والسهام؛ فقد تصدى لَهُم ولاة هذه البلاد من آل سعود -وَفَّقَهُمُ اللهُ تَعَالَى-، فحاربوهم مع علماء هذه الدعوة جنباً إلى جنب، وصفاً إلى صف؛ فالشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يركب مع الأمير مُحَمد بن سعود -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ويذهب إلى غزو تلك البلاد، باقياً في جيش هذا الإمام، خاضعاً له، مُحَرِّضاً الرعية والناس على الْجِهاد معه، وهكذا حاربوا وقاتلوا من حاد عن دين الله ﷻ، حتى عَمَّ الْخَير وانتشر -بِحمد الله ﷻ-.

هذه الأمور -أيها الأحبة!- وغيرها مِمَّا يطول ذكره ساعدت هذه الدعوة الْمُباركة على أن تنتشر، وعلى أن تفشو، وعلى أن تستقر إلى يومنا الحاضر -بِحمد الله ﷻ-.

واعلموا -أيها الإخوة!- أن ما أصابكم من خير -سواء في أمنكم واستقراركم، أو في رَغَدِ عيشكم، أو في سلامة أبدانكم- فإنَّما هو بسبب تَحقيق توحيد الله ﷻ، ونَحن بغير تَحقيق هذا التوحيد

لا نساوي عند الله -جَلَّ وَعَلاَ- جناح بعوضة، فكرامتُنا بِما نَحن عليه وبِما نشهد به على ما يظهر من حياتنا -بِحمد الله- من تَحقيق التوحيد وإظهاره.

ولذا؛ قال الله -جَلَّ وَعَلاَ-: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** -يعني: بِشِرْكٍ- **أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[الأنعام: ٨٢]، ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[الأعراف: ٩٦]، فتحقيق التوحيد شأنُهُ عظيم، وسلامة البلاد من مظاهر الشرك ومظاهر الطواغيت ومظاهر القباب والقبور والذبح لغير الله والطواف بالقبور والنذر لَها نعمة عظيمة، وَمِنَّةٌ كبرى لَمْ يسلم منها في هذا الزمن سوى هذا البلد؛ فليحمد الله -جَلَّ وَعَلاَ- الْمُسلم على هذه النعمة، وليشكر الله ﷻ عليها، وليسعَ إلى الْحِفاظ عليها مِمَّا يَخْدِشُهَا وَيُعَكِّرُهَا.

وَنَحن إذ تكلمنا عن هذا الجانب من دعوة الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ومن سيرته، فإننا الآن ننتقل إلى صُلْبِ هذه الْمُحاضرة؛ وهي: الكلام على سِيَرِ أئمة الدعوة.

أئمة الدعوة كُثُر، وهذه البلد الْمُباركة -وهي بلد [كلمة غير مفهومة]- لَها نصيب كبير من علماء الدعوة -رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-، وَنَحن لا نريد أن نستقصيَ كُلَّ عالِمٍ من علماء الدعوة بالكلام والذِّكر ونَحو ذلك، وَإِنَّما نقتصر على بعض الأعلام، كُلُّ عَلَمٍ يَحمل جانباً من الْجَوانب التي نَحُثُّ طلبة العلم وَنَحث العامة جَميعاً على الاهتمام بِها والتركيز عليها، فنحن سوف نتكلم عن: الشيخ قرناس بن عبد الرَّحْمن القرناس، والشيخ أَحْمد بن إبراهيم بن عيسى، والشيخ سليمان بن عبد الله بن مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَجْمَعِينَ-، هؤلاء الثلاثة هُمْ نَماذج لعلماء هذه الدعوة الْمُباركة، وكل واحد من هؤلاء العلماء -مع علمه وفضله وورعه وعبادته وزهده- تَمَيَّزَ بِجانب من الْجَوانب الْمُهِمَّة؛ دفعنا إلى أن نَخُصَّهُ بالذكر، ونتحدث عنه على وجه الْخُصوص.

فأول هؤلاء وأكبرُهم: الشيخ سليمان بن عبد الله بن مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، هذا الرجل قُتِلَ صغيراً عُمْرُهُ ثلاثٌ وثلاثون سنة، ولكنه قد خَلَّف ذِكراً جَميلاً حَسَناً له، وَصَنَّفَ مصنفاتٍ عظيمة، هي -بعد فضل الله جَلَّ وَعَلاَ- من العوامل التي ساعدت على حِفْظِ دعوة الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ-، وَحِفظ عقيدتنا أَجْمعين، كيف نال هذه الْمَنْزِلَةَ وَعُمْرُهُ ما قد ذكرنا؟!

هذا الشيخ اهتمَّ بالعلم، فأقبل عليه إقبالاً مُنْقَطِعَ النظير، فصرف أوقاته كُلَّها في تعلم العلم النافع والعمل الصالح، فابتعد عن الدنيا وعن أهلها وَعَكَفَ على قراءة العلم والاستفادة والتَّزَوُّدِ منه، فبلغ مَبلغاً عالياً في العلم، حتى فاق جَميع أقرانه من أهل العلم في ذاك الزمان بعلم الْحَديث وعلم التفسير؛ فهو -

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كان يقول: «أنا برجال الْحَديث أعرفُ مِنِّي برجال الدِّرْعِيَّة»، يعني أنه يعرف أسانيد الْحَديث، ويتكلم عليها، ويذكر العلل التي فيها، وَيُصَحِّحُ وَيُضَعِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وهو كيف؟ في انعزاله وتفرغه لطلب العلم، ومن آثار ذلك: أنه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ذات يوم خرج إلى الْمَزرعة مع بعض رِفْقَتِه، فأرادوا أن يَختبروه[1]، فعرضوا عليها بطيخة وقرعة، فلم يستطع الشيخ أن يُفَرِّقَ بين هذا وبين هذا، قال بعض مَنْ نقل هذه العبارة: وذلك لأن الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مُنْصَرِفٌ عن مثل هذه الأمور، مُقْبِلٌ على العلم الشرعي.

ومن آثار إقباله على العلم واهتمامه به: أَلَّفَ أول كتاب وأنفع كتاب في شرح كتاب التوحيد للشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، أَلَّفَ كتابه «تيسير العزيز الْحَميد في شرح كتاب التوحيد»، فتوفي -رَحِمَهُ اللهُ- وَلَمْ يُكْمِلْهُ؛ إذ قد بلغ عند شرح «باب: ما جاء في الْمُصَوِّرِينَ»، ثُمَّ أكمله بعده الشيخ عبد الرَّحْمن بن حسن -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فهذا الكتاب أصبح عُمْدَةً، ما من عالِمٍ من علمائكم ولا علماء علمائكم ولا علماء علماء علمائكم إلا وهو يقرأ هذا الكتاب، ويستفيد منه، وينتفع به، وَيُدَرِّسُهُ الطلاب، ويَجعله مَرْجِعاً لَهُم في أبواب التوحيد ومسائله وقضاياه.

فانظر -أيها الطالب!- إلى مَنْزِلَة العالِم؛ إذ هي مَنْزِلَةٌ عالية رفيعة، تُعْلِي مَقامَهُ، وترفع شأنه، بشرط أن يكون صادقاً مع الله، مُخْلِصاً لله ﷻ، لا يريد بالعلم أن يصرف وجوه الناس إليه، ولا يريد بالعلم أن يُماري به السفهاء، ويجاري به أهل الأهواء، لا، وَإِنَّما يريد به وجه الله -جَلَّ وَعَلاَ-، فالشيخ سليمان -رَحِمَهُ اللهُ- ليس له ذُرِيَّةٌ ليس له أبناء؛ لأنه لَمْ يتزوج، لكنه ترك ما هو خير وأنفع له -إن شاء الله- من الذرية والأبناء، خَلَّفَ هذا الكتاب وغيره من الكتب التي نفعت الأمة، وَحَفِظَتْ عقائدَها، وأصبحت مَرجعاً لأهل العلم فيما بعد إلى أن تقوم الساعة -إن شاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى-.

لَمَّا قدم إبراهيم باشا إلى هذه البلاد الطيبة، وحصل ما حصل من شرور طاحنة بينه وبين أهل هذه البلاد، ووصل إلى الدرعية سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف (١٢٣٣هـ) أخذ معه الشيخ سليمان بن عبد الله بن مُحَمد بن عبد الوهاب إلى مِصر، ثُمَّ قتله هناك، حسبنا الله ونعم الوكيل، وغفر الله -جَلَّ وَعَلاَ- لِهذا العالِم وهذا الشيخ، فليقتف به الطلبة، فلينتفعوا من سيرته، فليقبلوا على التأسي به في هذا الباب.

وأذكر أن ابن بِشْر ذكر أنه كان يَجلس بعد الْمَغرب وهو صغير السن في مَجلس الإمام سعود بن عبد العزيز -أيضاً-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وَيُقْرَأ عليها «صحيح البخاري»، وجَميع الأمراء والعلماء

---

(١) الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- قال: «يَختبرونه».

وطلبة العلم في الدرعية والعامة حاضرون مستمعون، ويتعجبون وينبهرون من قوة كلامه على أسانيد البخاري، وسعة معلوماته في شرحه للأحاديث، وبيان الْخِلاف بين أهل العلم والراجح والْمَرجوح منها، ذكر ذلك ابنُ بِشْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-.

وكان مع هذه الْمَزايا جَمِيل الْخَط حَسَنَهُ جداً، وَحُسن الْخَط كان مَفْخَرَةً يفتخر بِها الأوائل - كما قد يعلم كثير من كبار السن هنا-، بل لَمَّا عُرِضَ خَطُّهُ على بعض العلماء في الشام قالوا: كيف هذا الْخَط يصدر من نَجد وليس فيها مُعَلِّمُونَ يُعَلِّمُونَ الْخُطوط؟!! فهو -رَحِمَهُ اللهُ- خَطَّ «صَحِيحَ الْبُخَارِيِّ» وكان خطاً آيةً في الْحُسن والْجَمال، فرؤي نسخة من كتاب «الْمَعاد» بِخَطِّهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يضاهي العذراءَ في خِدرها في الْحُسن والْجَمال والبهاء.

فاقتفوا به -أيها الطلاب!-، وانتفعوا به، واجعلوه مثالاً تَحتذونه في سيركم في طلب العلم؛ فإن طلب العلم يَحتاج إلى هِمَّة، وإلى مثابرة، وإلى صبر، وأَعْطِ العلم كُلَّكَ يعطيك بعضه، أما إذا تقاعس الطالب عن العلم وغفل؛ فإنه لا ينال منه إلا شيئاً قليلاً لا يُذْكَر.

ولذا؛ في مقامات بديع الزمان أنه قال: «حدثنا عيسى بن هشام، قال: كنتُ في بعض مَطارِح الغُربة مُجتازاً، فسمعتُ رجلاً يقول لآخر: بِمَ أدركتَ العلم؟ فقال: طلبته فوجدته بعيد الْمَرام، لا يُصَاد بالسهام، ولا يُورَث عن الآباء والأعمام، ولا يرى في الْمَنام؛ فتوسلتُ إليه بافتراش الْحَجَر، واستناد الْمَدَر، وركوب الْخَطَر، وإدمان السهر، وكثرة النظر، فوجدته شيئاً لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغْرَسُ إلا في النفس، ولا يسقى إلا بالدرس، أرأيتَ مَنْ أشغل نَهاره بالْجَمع وليله بالْجماع، هل يَخرج من ذلك فقيهاً؟!!! كلا -واللهِ-؛ إنَّ العلم لا يَحصل إلا لِمَنِ اعتضد الدفاتر، وحَمل الْمَحابر، وقطع القفار، وواصل في الطلب الليل والنهار».

فَجِدُّوا -أيها الطلبة!- في تَعَلُّمِ العلم، واحرصوا عليه استطاعتكم؛ يعطكم العلم شيئاً قليلاً من: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[طه: ١١٤]، فهذا جانب، وهذه صورة من الصور لأئمة الدعوة -رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.

صورة أخرى؛ وهي: ترجمة الشيخ العالِم أَحْمَدَ بن إبراهيم بن عيسى -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، هذا الرجل كان في مكة، وكان يَتَّجِرُ في الأقمشة، مع علمه وعبادته وورعه وزهده ومؤلفاته النفيسة الكثيرة، وكان يتعامل مع رجل اسْمُهُ عبد القادر التلمساني من كبار تُجَّار جدة، فكان يشتري منه الأقمشة، ويدفع له أربعمائة جنيه ذهب، والباقي يدفعه على أقساط، وكان الشيخ -لعلمه، وورعه، وزهده- لا يتأخر عن الأقساط يوماً واحداً، فلما طال تعامله مع عبد القادر -هذا- التلمساني تَعَجَّبَ منه، فقال له: يظهر أن ما يشاع عنكم -أيها الوهابيون!- إنَّما هو من اختلاق خصومكم السياسيين؛ فقد عاملتُ

الناس كثيراً -يا وهابي!-هكذا يقول، ونحن لا نقر لِهذه التسمية ولا علماؤنا- فقد عاملت الناس كثيراً فَلَمْ أرَ مثلك في الصدق والنَّزَاهَةِ والوفاء بالعهد والْمَواعيد.

ثُمَّ بدأ عبد القادر التلمساني يتخاطب مع الشيخ في مسألة توحيد الإلَهية، ويتناقش معه في هذا التوحيد، فاستمروا ثلاثة أيام يتناقشون نقاش أهل العلم، وهو النقاش الْمَبني على العلم، وعلى العقل، وعلى البصيرة، وعلى الْهُدوء، وعلى إرادة الْحَق، وعلى صدق النُّصْح للمناقَش والْمُجادَل، فلما تَمَّتْ هذه الثلاثة أيام أذعن الشيخ عبد القادر التلمساني للشيخ أَحْمد بن عيسى، وقال: «إنَّما قلت في توحيد العبادة: هو حق لا مَحيص عنه، وإنني أبرأ إلى الله -جَلَّ وَعَلاَ- مِمَّا كنت عليه سابقاً، وأعتقد أنه لا يَجُوز صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله ﷻ، وأن البناء على القبور والذبح لَها من الإشراك بالله ﷻ». فهل انقضت هذه الجولة بين هذين الرجلين أم لا؟!

لَم تنقضِ؛ بل طَرَحَ عليه الشيخ أَحْمد بن عيسى موضوعاً آخر؛ وهو: توحيد الأَسْماء والصفات، وكان عبد القادر قد تَعَلَّم في الْجَامع الأزهر، وقرأ «السنوسية»، و«أم البراهين»، و«الجوهرة» وشرحها، ونَحوها من كتب الأشاعرة، فأخذوا يتناقشون قرابة أربعة عشر يوماً في مسألة توحيد الأَسْماء والصفات، يقول الشيخ عبد القادر: «فلما انقضت هذه الأيام شرح الله صدري للحق، وعرفت أن ما عليه هؤلاء العلماء وأن ما عليه الشيخ مُحَمد بن عبد الوهاب وتلامذته هو الْحَق الذي لا مَحِيد عنه»، فأذعن لذلك ورجع، فكان ماذا؟

كان الشيخ عبد القادر التلمساني عَوْناً لأهل الدعوة في طباعة كتبهم ونشر مؤلفاتهم والذَّبِّ عنهم، فقد طبع كتباً كثيرة نافعة مفيدة كُلُّها تَخدم التوحيد، وكان -أيضاً- من آثار الشيخ عبد القادر التلسماني أن هدى الشيخ مُحَمد نصيف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إلى مذهب السلف، فكان -أيضاً- عوناً لأهل السنة والْجَماعة على نشر كتبهم ومؤلفاتهم في حِقبة زمنية لَمْ يوجد لَهُم دولة تنصرهم؛ فهي ما بعد سقوط الدولة السعودية الثانية.

وقد حكى هذا الكلام بأكمله الشيخ مُحَمد نصيف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في مقدمته لكتاب الشيخ ابن عيسى «الرد على شبهات الْمُستعينين بغير الله -جَلَّ وَعَلاَ-»؛ فليرجع إليه مَن شاء؛ فهو إسناد عالٍ؛ إذ أن الشيخ مُحَمد نصيف يُحَدِّثُ به عن الشيخ عبد القادر التلمساني مباشرة.

فهذا لون آخر وهذه صورة أخرى لعلماء الدعوة -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-، فطالب العلم يَحتذي بِمثل هذه الصورة، ويكون داعياً إلى الله ﷻ، يُوَضِّحُ دين الله، وينشره بين الناس بالْحِكمة والْمَوعظة الْحَسنة، فَيُبَيِّنُ السنة، ولا يُخاصم عليها؛ لأن الْخِصام مذموم عند أهل العلم، وهو لا يأتي بِخَير -

غالباً-؛ وإنَّما يَجني قسوة القلب، وَتَفَرُّقَ الأحبة والإخوة، وكذلك يَجنو ضياع الوقت والأعمار في غير فائدة تُذْكَرُ، إلى غير ذلك من الأمور التي لا تُحمد عُقْباها.

إذن؛ فسبيل طالب العلم أن يدعوَ إلى الله على بصيرة من الله، على دليل واضح بَيِّنٍ جليٍّ من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كما قال النبي ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ**»، فمتى فعل ذلك فقد أَدَّى زكاةَ العلم الذي تَعَلَّمَهُ واقتبسه في خلال حياته العلمية.

والْمِثالُ الثالث -وهو الأخير-: الشيخ قرناس بن عبد الرحمن القرناس -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، هذا العالِم الكبير مشهور لدى الجميع، وقد واجهت هذه البلد [كلمة غير مفهومة] كما واجه سائر بلدان نَجد مشكلة إبراهيم باشا؛ فإنه قدم إلى هذه البلاد يريد سحقها وسحق كلمة التوحيد التي انطلقت منها، فكان من بين البلدان التي مَرَّ بها إبراهيم باشا هذه البلدة -وهي [كلمة غير مفهومة]-، فكان أميرها منصور العساف، فصمد له أهلها صموداً قوياً متميزاً لَمْ يصمد أحد من بلدان نَجد سواها، وهي بعد الدرعية في الصمود وفي القوة والثبات.

جاء إبراهيم باشا وأنزل مدافعه بقرب السور، وأخذ يضربُها بالقِلال التي هي الْمَدافع، فلما طال حصارها تضايق جداً، فطلب النجدة من مُحَمد علي من مِصر، فَأَمَدَّهُ، فكان ذات ليلة أن رمي أمير هذه البلدة منصور العساف بِقُلَّةٍ في عَيْنَيْهِ، فقتلته، فحمل الراية بعده مَن؟

حَمَلها الشيخ قرناس بن عبد الرحمن القرناس -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، فأبلى بلاء حسناً، وجاهد في الله -جَلَّ وَعَلاَ-، ودفع عن دينه وعن بلده وعن عِرضه وعرض الناس أَجْمعين في هذه البلدة دفاعاً مشكوراً مَحموداً، فكان من ضمن ما واجهته من الْمَشاكل أن البارود عندهم نفد، وأن الْمِلح عندهم نفد، فخشوا من أن يدخل عليهم إبراهيم هذه البلدة فيفتك بِهم، فاقترح الشيخ ومن معه أن يَجعلوا أخاديد في الأرض، ويصبوا فيها الْمَاء، فيلبسوا أيدٍ من جلد قوي سَميك، فإذا سقطت الْقُلَّة تسارعوا إليها وأخذوها ووضعوها في هذا الْمَاء، فإذا طفأت أخذوا الْمِلح وأخذوا البارود فَتَقَوَّوْا بسلاح عدوهم على عدوهم، فكان هذا من الْمَناقب الْمَذكورة للشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وهكذا فعلوا، فلما ضاق بإبراهيم الْحِيلة لَمْ يَجِد بُداً من أن يثير [كلمة غير مفهومة] الأرض وغبارها حتى تنعدم الرؤية، فلما فعل ذلك دخل من ثلمة في السور وأوى إلى بيت [كلمة غير مفهومة] في هذه البلدة.

فلما علم الشيخ وأهل هذا البلد البواسل بذلك -ماذا فعلوا؟- أخذوا الأبواب -أبواب القصر- وجعلوا عليها التمر، ثُمَّ توسعوا فوق هذا البيت وفيه من العساكر من الروم ما لا يُحصيه إلا الله، فدخلوه بقوة وثبات وجأش يتقدمهم هذا العالِم، فكانت مَقتلة عظيمة قُتِلَ فيها أكثر من ستمائة شخص

من جند إبراهيم باشا، فأخذوا جثثهم ورجَموا به السور، ثُمَّ لَمَّا جاء الصلح سدوا الطرهة التي في السور بشيء من الطين، فكفاهم الله -جَلَّ وَعَلاَ- شَرَّ إبراهيم باشا، فماذا فعل؟

رأى أن الوقت ضاع في هذه البلدة، فطلب هو الصُّلْح من أهلها، فلما عرضه على الشيخ رأى الشيخ بعلمه وعقله أن الصلح في هذه الحالة مُتَعَيِّنٌ على الْمُسلمين؛ لِحقن دمائهم وأموالهم والْحِفاظ على أعراضهم، فقبل الصلح بشرط واحد؛ وهو: أن يدخل إبراهيم باشا إلى هذا البلد لوحده دون أحد من حرسه أو جنوده، وأعطاه الأمان، وَلِعِلْمِ إبراهيم باشا بِصدق هذه البلد وسلامة عقيدتِهم دخل هذا البلد لوحده، حتى جاء للشيخ قرناس فجلس معه قرابة أربع ساعات أو أقل أو أكثر يتفاضون في أمر الصلح، وكانت صبيحة الجمعة إذ ذاك، فلما حضرت الصلاة قال له الشيخ: قم بنا نصلي، فلما ذهبوا إلى الْمَسجد ودخلوا، صعد الشيخ قرناس منبر الْجَامع فأخذ يَخطب، فتعجب إبراهيم فقال: هذا قائد؟! أو هذا عالِم؟!! أو هذا مُجاهد؟!!! فانبهر انبهاراً كثيراً.

فهذه صورة -أيها الأحبة!- ثالثة من صور علماء هذه الدعوة، وهي تُمَثِّلُ الوقوف بالْمَال والنفس والولد دون هذه الدعوة الْمُباركة، ودون أن يَمَسَّهَا الأعداء بسوء أو أذية، فهذا هو دَيْدَنُ من علماء هذه الدعوة -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى-، هم صَفًّا بِجَنب ولاتِهم، يقاتلون عن هذه العقيدة، ويدافعون عنها، وينشرونَها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لا يتقاعسون، ولا يُحابون، ولا يفترون، بل شعارهم ودثارهم: حَمْلُ راية هذه الدعوة التي قام بِها الشيخ مُحَمد بن الوهاب، وهي امتداد لدعوة الرسول ﷺ، حَمْلُ شعارِها ولو كَلَّفَ ذلك دماءَهم وأموالَهم وأهليهم، فلنقتفِ بِهؤلاء، ولنأخذ العبر والعظات من سيرهم وأحوالِهم، ولنرتبط بِهم، ولنعد إليهم، ولنتأمل أحوالَهم كثيراً؛ فإنَّهم -واللهِ- خير الناس لأهل هذه البلد، وخير الناس علماً وعملاً وصدقاً وصلاحاً -نَحسبهم كذلك، والله تعالى حسيبهم-، فمتى ارتبط بِهم طالب العلم، فمتى قرأ مؤلفاتِهم، ونشأ عليها، وربَّى أبناءه وأهله عليها؛ حازوا خيراً عظيماً، وجنبوا شراً كبيراً.

نسأل الله -تَعَالَى- بأسمائه الْحُسنى وصفاته العُلا أن يوفقنا وإياكم لِمَا يُحِبُّه ويرضاه، وأن يَجعلنا هداةً مهتدين غير ضالين ولا مُضِلِّينَ، ونعتذر عن الإجابة عن الأسئلة، وباللهِ التوفيق.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ.[1]

(١) انتهيتُ من إعداد هذه الْمَادة ليلة الأربعاء ١٤٢٨/٧/٥هـ الْمُوافق: ٢٠٠٧/٧/١٨م، والْحَمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.